

الدور العلمي والثقافي لمدينة الكوفة

م. د. خمائل شاكر الجمالي
جامعة بغداد / مركز إحياء التراث العلمي العربي

مقدمة :

تعدّ الكوفة من أهم المدن التي لعبت دوراً بارزاً في التاريخ العربي الإسلامي ، فهي مدينة المدينة العربية الإسلامية الثانية التي أسست في العراق بعد البصرة ، إذ خُطت المدينة في العام (١٧) للهجرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بعد أن خُطت البصرة في العام (١٥) للهجرة .

وايضاً تعدّ الكوفة من المدن التي أقامها العرب لأغراض عسكرية ؛ إلا أنها ما لبثت أن تطورت حتى غدت واحدة من المدن العلمية الثقافية المهمة ؛ فازدحمت بصنوف شتى من الناس الذين قدموا إليها من كل حذب وصوب ومن بينهم عدد من أصحاب الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، حيث ساهموا في إشاعة العلم والمعرفة وأدى ذلك إلى خلق مناخ ثقافي امتزجت فيه الثقافة السائدة في الكوفة مع الثقافة العربية الإسلامية الجديدة وقد شجع ذلك على ظهور الدراسات الدينية والدينية المختلفة كدراسات القرآن والتفسير والحديث والفقه والعربية والشعر والتاريخ وغير ذلك ، وقد تطورت هذه الدراسات فيما بعد لتصبح الكوفة واحدة من المراكز العلمية المهمة في العالم ، وارتقت مدينة الكوفة سلم الرقي والتحضر حتى غدت وحدة من أهم المراكز الحضارية في العالم الإسلامي اجتذبت إليها صنوف الناس من ضروب الملل والنحل والقوميات في ظل مجتمع يسوده حركة فكرية زاخرة بألوان شتى من الثقافات

المبحث الأول

الدور العلمي والثقافي لمدينة الكوفة

كانت المدن ولا تزال دون الريف والقرى ، مركزاً للعلم والفن والأدب ، لأنها أوفر مؤناً وأوسع عمراناً ، تتوفر فيها الوسائل المهيأة للحركة الفكرية أكثر من غيرها ، لأن العمران ووسائل العمران تستتبع شيئاً من الغنى والرفاهية ، وهذه تستتبع شيئاً من الرقي في الفكر والعاطفة والذوق ، وعند ذلك يحدث الرأي وتبتدع الطريقة فينشأ العلم ويعمر

الأدب ، نعم إن الشؤون وآداب الشؤون تستدعي قوانين تنظم علوماً يحصل بها رقي للعقل .^(١)

فلا شك في أن الثقافة الإسلامية تختلف عن ثقافات الأديان الأخرى، فهي ثقافة تدور حول محور الدراسات الأدبية ؛ على أن من أراد أن يفهم الإسلام وتشريعاته وتعاليمه ؛ لابد من أن يفهم علوم العربية وآدابها أولاً، وعلى هذا كانت الدراسات الإسلامية في المدينة المنورة في عهد الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، قبل أن تنتقل إلى البصرة وغيرها من أمصار الفتح الإسلامي لتبلغ ذروتها في الكوفة، بعد أن اتخذها الإمام علي (عليه السلام) عاصمة للدولة الإسلامية ، وأسّس في مسجدها المعظم أول مدرسة تُعنى بعلوم الشريعة والفكر واللغة والأدب .

وفي أثناء ذلك ((بقيت الكوفة تصبّ في بحر النجف)) التي بدأت العمارة تتسع فيها، وبدأ السكن ينمو تدريجياً، مع ظهور قبر الإمام علي (عليه السلام) في القرن الثاني الهجري .^(٢)

وكان لموقع الكوفة الجغرافي وعناصر السكان العرب فيها واحتكاكهم بالأقوام الأجانب الذين ساكنوهم ثم اقتباس ما ورثوه من حضارات سابقة ومعارف قديمة اثر في تحديد الاتجاه الثقافي والفكري لها .

وشجع الاستقرار في الكوفة على ظهور الاهتمام بالعلم والمعرفة ، وهو ما حثّ عليه الإسلام ، وكان ذلك ايذاناً بظهور الاتجاهات الأولى للثقافة العربية الإسلامية في الكوفة ، وهي اتجاهات كانت تستند على تيارين أساسيين هما التيار الإسلامي المتمثل بدراسات القرآن والحديث والفقه والتيار القبلي المتمثل في الاهتمام بالشعر والأيام والأنساب واللغة .^(٣)

وكان الاهتمام بالقرآن أمراً ملحاً خلال الفترة الأولى من الاستقرار بوصفه القاعدة الأساسية للإيمان ، لذلك حاولت الخلافة إرسال عدد من القراء إلى الأمصار الجديدة لتعليم الناس وتبصيرهم .^(٤)

ولعب لصحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الدور المهم في تطور الحياة العلمية والثقافية في الكوفة فقد كان عبدالله بن مسعود يخطب في مسجد الكوفة كل

خميس ويذكر الناس بدينهم وديناهم وودّ بعضهم لو أنه خطب كل يوم فقال له أحدهم : " يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم " .

وأرتبط الاهتمام بالقرآن بالاهتمام بالتفسير وكانت المحاولات الأولى عبارة عن شروحات لبعض النصوص اللغوية ولزمن نزول الآيات والموضوعات التي عالجها وقد أفيد من هذا المجال من الشعر والنثر الذي ساد في الفترة التي سبقت الإسلام ، فضلاً عن أحاديث الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وأقوال الصحابة وإشارات أهل الكتاب .^(٥)

وقد تصدى للتفسير في الكوفة عدد من أصحاب الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) مثل علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن مسعود .^(٦)

ثم أصبح الإمام الصادق (عليه السلام) اعلم علماء عصره بعد الإمام الباقر (عليه السلام) على الإطلاق ، وإن عصر الإمام الصادق (عليه السلام) قد شهد نهضة فكرية ، ففيه اتسع نطاق الحركة الإسلامية ، وكانت مدرسة الإمام في المدينة المنورة مشهورة تشد إليها الرحال ، وترسل إليها البعثات ، إذ أرسلت " الكوفة والبصرة وواسط والحجاز ، إلى جعفر بن محمد أفلاذ اكبادها من كل قبيلة ، فقد درج الإمام بعد كل درس أن يفسح المجال لطلابه من سائل أو ناقد أو مستوضح ، وكان من عادة الإمام أن ينتهي من دروسه عند حلول صلاة الظهر ، فيؤم الناس للصلاة ثم ينصرف إلى داره ، حتى وصل عدد طلابه إلى (أربعة الاف) ما بين راوٍ ومستفيد وفي الرحلات الكوفية إلى الإمام الصادق يذكر الحكم بن عيينة قال : " قال أبو عبد الله (عليه السلام) لرجل من أهل الكوفة : ((وسأله عن شيء لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرئيل في دورنا ، ونزوله على جدي بالوحي والقرآن والعلم ، فيستسقى الناس العلم من عندنا فيهدونهم وضللنا نحن ؟ هذا محال " .^(٧)

وقد تميزت الكوفة باعتمادها على الرأي في التفسير وقد سمي أصحابها بأهل الرأي لكثرة مناقشتهم للمسائل وإبداء الرأي فيها ، ولعل من أبرز تلاميذ الكوفة في التفسير علقمة بن قيس ، والأسود بن يزيد ، وعامر بن شراحيل ، وشريح بن الحارث الكندي

، وإبراهيم بن يزيد النخعي ، وقد لاقى التفسير في الكوفة تطوراً فيما بعد ، إذ أصبحت مدرسة الكوفة واحدة من أبرز مدارس التفسير في العالم الإسلامي .^(٨)

وحظي الحديث بالاهتمام في الكوفة نظراً لدوره في تفسير ما ورد في القرآن الكريم ، وقد تميزت الفترة الأولى من الاستقرار في الكوفة بقلّة الرواية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . فقد كان كبار الصحابة خلال هذه الفترة يخشون كثرة الرواية لئلا يقع الرواة في الخطأ والنسيان ، فينسبون إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحاديث لم يقلها ، كما أن رواية الحديث تبعد الناس عن الاهتمام بالقرآن الكريم ، وقد أوصى الخليفة عمر بن الخطاب أصحابه الذين بعث بهم إلى الكوفة بالإقلال من رواية الحديث فقال لهم : " أنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جردوا القرآن ، ونقلوا الرواية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .^(٩)

وقد عرف عن عبد الله بن مسعود قلة روايات الحديث ، وكان مع تلاميذه (يتحرى في الأداء ويشدد في الرواية) .

على أن شيوع الوضع في الحديث ووفاء عدد كبير من حفظته دفع إلى الاهتمام به وتدقيقه ، وقد برز في الكوفة خلال هذه الفترة عدد من الرواة للحديث مثل الأسود بن يزيد ، وسويد بن غفلة ، وزر بن حبيش ، وعمرو بن أبي ليلى ، وشريح بن الحارث ، وشريح بن هاني ، وقيس بن أبي حازم ، وعمرو بن ميمون ، والمعمر بن سويد ، وعامر بن شراحيل ، وأبي اسحق السبيعي وغيرهم كثير ويكفي أن هذا العلم كان عدد طلابه في نهاية القرن الأول الهجري في الكوفة وحدها ستة الآلاف فيما يقال ولا نعتقد أن في هذا مبالغة كثيرة فقد ألف البخاري كتاباً ضخماً ذكر فيه أسماء المعروفين من رواة الحديث في القرنين الأول والكتاب مكون من ثمان مجلدات ضخمة فيها أسماء الآلاف ممن رأى أنهم يستحقون الذكر .

كما حظي الفقه باهتمام ملحوظ أيضاً وكان الفقهاء في الكوفة يعتمدون في أحكامهم على ما يجدونه في كتاب الله والصحيح من السنة النبوية ، وإذا لم يجدوا ذلك اعتمدوا

الرأي والقياس وسيلة لإحكامهم ، وقد تميزت الكوفة باعتمادها الرأي مقابل المدينة التي اعتمدت الحديث وفضلت الضعيف منه على الاجتهاد .^(١٠)

وبرز في الكوفة عدد من القضاة مثل عروة بن الجعد البارقى وسلمان بن ربيعة ، وجبر بن القشعم الكندي ، وشرجيل بن جبر ، وأبو قرّة الكندي ، وعبد الله بن مسعود ، وذكر أن أول من قضى في الكوفة أبو قرّة الكندي ثم سليمان بن ربيعة ثم استقصى عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود . وكان عبد الله يقرئ القرآن في المسجد ثم يجلس بعد ذلك يفتي الناس .^(١١)

ومن بين القضاة اللامعين في الكوفة شريح بن الحارث ، ومسروق بن الأجدع ، والحارث الأعور ، وعامر الشعبي ، وأبو عبد الله سعيد بن جبير ، ويزيد بن الأسود ، والحكم بن عينية ، وعبيدة السلماني ، وقد وصف بعض هؤلاء بتظلمهم في القضاة فقد وصف مسروق بن الأجدع بأنه " اعلم بالفتوى من شريح وكان شريح يستشيريه إذا شكل عليه أمر .^(١٢)

وفضلاً عن هؤلاء جميعاً يعد الإمام علي (عليه السلام) من بين الفقهاء والقضاة اللامعين وقد نقل عنه الكثير من الأحكام التي حملها عنه أهل الكوفة . إن اهتمام الكوفة بالفقه جعلها واحدة من المدن التي حظيت بمذهب فقهي هو مذهب أبي حنيفة . وأولت الكوفة اهتماماً بالعربية ، ويبدو أن اختلاط العرب بالأجانب واندماج بعضهم ببعض وفتح بيوتهم للسبائا أدى إلى إحداث تغير في ملكتهم وظهور اللحن في لغتهم وتسرب العجمة إلى لسانهم ، وانعكس ذلك في قراءتهم للقرآن الكريم ظهر للحن واضحاً بين الأعراب والأعاجم على حد سواء وقد أعرب الخليفة عثمان بن عفان عن تخوفه من ذلك فقد ورد في إحدى خطبه " بعد اجتماع ثلاث فيكم ، تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبائا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ."

وكان ذلك دافعاً لوضع الأسباب التي يمكن من خلالها الحفاظ على العربية وقد أشار إلى ذلك الزبيدي فقال " حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقيدها لمن ضاعت عليه وثقيفها لمن ذاعت عنه .^(١٣)

ويعدّ النحو من بين القواعد التي وضعها العرب لضبط العربية ، وقد وردت روايات عديدة فيما يتعلق بنشأة هذا العلم ، وقد أجمع عدد من الباحثين على أن أبا الأسود الدؤلي هو الذي وضع أسس هذا العلم . ويرى الدكتور جواد علي " إن علم العربية كان معروفاً في العراق ، وأنه كان يدرس في مدارس الحيرة وعين التمر والانبار وربما في مواضع أخرى كانت غالبية سكانها من العرب النصارى كان يدرسه لهم رجال الدين الذين يتقنون الآرامية ، وكانوا قد اخذوا علومهم في النحو من اليونان بتأثير النصرانية ودراسة الأناجيل والكتب الدينية المؤلفة باليونانية ، ولما كان لأهل المواضع المذكورة من العرب فلا يستبعد ظهور جماعة من رجال الدين النصارى العرب اتخذت من مبادئ النحو التي وضعت للسريانية والمنقولة عن اليونانية قواعد لضبط العربية بموجبها .^(١٤) ، ولا يستبعد احتمال وقوف الإمام علي (عليه السلام) أو أبي الأسود الدؤلي على تقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف وقفاً عليه باتصالهم بالحيرة أو بعلماء من أهل العراق كانوا على علم بالنحو وعلوم اللغة في ذلك العهد وقد كان ذلك في الأسس والمبادئ ، فلما جاء الإسلام واخذ المسلمون علم العربية على المتقدمين زادوا فيه وفرعوا واستقصوا وقاسوا واخذوا حسن كلام العرب ومن الشعر حتى تضخم النحو فبرز على الصورة التي نجدها في كتاب سيبويه وفي الكتب التي وضعت بعده .^(١٥) لقد اهتم الكوفيون بدراسة النحو واستفادوا كثيراً من البصريين الذين تقدموا عليهم في هذا المجال (فكان كثير من رجال العلم الكوفيين يشدون الرحال إلى حلقات الدرس في البصرة وكان بعض أهل العلم من البصريين يقصد الكوفة ويتصدر التدريس فيها .

أبرز علماء الكوفة

- ١- في الفقه : الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) (ت ٤٠هـ) ، والإمام جعفر الصادق (عليه السلام) (ت ١٤٨هـ) .
- ٢- في النحو : أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٧هـ) .
- ٣- في اللغة : حماد بن هرمز ، المفضل بن محمد الضبي (ت ١٦٨هـ) .
- ٤- في الشعر : ابو العتاهية (ت ٢١١هـ) ، أبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ) .

٥- في الرواية والحديث : البراء بن عازب (ت ٥٧٢ هـ) .

٦- في الكيمياء : جابر بن حيان الكوفي .^(١٦)

المبحث الثاني

الدور العلمي والفكري للإمام الصادق (عليه السلام) في الكوفة

إن الأثر العلمي والفكري للإمام الصادق (عليه السلام) ترويه الكثير من أمهات الكتب ، وفيه الكثير من الروايات التي تكاد لا تحصى ، حيث سعة إلى إكمال مسيرة آباءه وأجداده في نشر العلوم الإسلامية روى الشيخ المفيد^(١٧) " وكان الصادق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين (عليه السلام) من بين إخوته خيفة أبيه محمد بن علي (عليه السلام) ووصيه والقائم بالإمامة من بعد ، وبرز على جماعتهم بالفضل وكان أنبههم ذكراً وأعظمهم قدراً وأجلهم في العامة والخاصة ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وأنتشر ذكره في البلدان ولم ينقل عن أحد عن أبي عبد الله (عليه السلام) فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف رجل " .^(١٨)

إن جود الإمام الصادق (عليه السلام) في مدينة الكوفة ، التي هي واحدة من أشهر المدن الإسلامية ، التي ازدهرت الحركة العلمية والفكرية فيها منذ باكورة ولادتها يقول الحموي^(١٩) : " وقال سفیان بن عیینة : خذوا المناسك عن أهل مكة ، وخذوا القراءة عن أهل المدينة ، وخذوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة " .

كذلك إن الإمام الصادق (عليه السلام) قد اغتنم وجوده في مدينة الكوفة فسعى إلى نشر العلوم الإسلامية ، وقد ساعده في ذلك عدة أمور منها : إن الخلافة العباسية كانت جديدة العهد بعد سقوط الدولة الأموية ، ولم يكن للعباسيين يومذاك قدرة على الوقوف في وجه الإمام لانشغالهم بأمور الدولة ؛ بالرغم من المضايقات الكثيرة التي حصلت للإمام من الخليفة أبي جعفر المنصور ، فساعد ذلك الإمام الصادق (عليه السلام) على نشر علوم جمّة ، وتخرج على يديه الكثير من الطلبة النابغين .^(٢٠)

وإن مدينة الكوفة تناصر أهل البيت (عليهم السلام) وتشجع لهم مما ساعد الإمام الصادق (عليه السلام) على نشر العلوم الإسلامية ، فضلاً عن أن الكوفة قد زخرت

بالموالي ، فكان لهم أثر محسوس في تطور الحياة العلمية والفكرية والاجتماعية في مدينة الكوفة ^(٢١) ، وكانوا يميلون إلى أهل البيت (عليهم السلام) لعدة أسباب منها ولائهم لأهل البيت فضلاً عن شعورهم بالضغط والإكراه من الدولة تجاه الطرفين معاً (أهل البيت (عليهم السلام) والموالي) ، الأمر الذي دفعهم إلى اللجوء إلى أهل البيت لطلب العلم والمعرفة ، لذلك عند تصفح أسماء أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) أو الرواة عنه في كتب الرجال تجد الكثير منهم من الموالى وبالأخص الكوفيين . ومن الدلائل التي تثبت إن الإمام الصادق (عليه السلام) ، قد ترك الأمور السياسية واتجه اتجاهها مباشراً نحو نشر العلم ، لأنه يعلم علم اليقين إن الخلافة لن تؤول إلى العلويين قط ، ما رواه أبو الفرج الأصفهاني ^(٢٢) .

سعى الإمام الصادق (عليه السلام) إلى نشر العلوم الجمة التي يمتلكها بين المسمين ، وكان في حله وترحاله ، يعقد المجالس والندوات وينظر العلماء والفقهاء ، فشكل مدرسة لعلوم أهل البيت (عليهم السلام) سار فيها منتهجاً نهج آبائه وأجداده (عليهم السلام) ومكملاً لمسيرتهم العلمية التي ابتدأت بالنبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم) والإمام علي (عليه السلام) ومن ثم الأئمة من بعده الإمام الحسين ، والإمام علي بن الحسين ، والإمام محمد بن علي (عليه السلام) حتى جاء الدور إليه (عليه السلام) . وبعد إن استدعي الإمام الصادق (عليه السلام) إلى مدينة الكوفة من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، كما جاء في رواية الاربلي ^(٢٣) ، وربما يكون الإمام الصادق (عليه السلام) قد ذهب إلى مدينة الكوفة في أيام أبي العباس السفاح ، إلا أن ذلك لم يكن باستدعاء السفاح له ، لكن برغبة الإمام الصادق (عليه السلام) .

ومن الروايات التي توضح الأثر العلمي للصادق (عليه السلام) في الكوفة ما ذكره الشهرستاني ^(٢٤) : " وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه له أسرار العلوم ، ثم دخل لعراق وأقام بها مدة ، ما تعرض للإمامة قط ولا نازع أحداً في الخلافة قط ، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط " روى بن شهر آشوب : " عن محمد بن سنان عن الفضل بن عمر : إن المنصور قد هم بقتل أبي عبد الله (عليه السلام) غير مرة . فكان إذا بعث إليه ودعاه ليقته ، فإذا

نظر إليه هابه ولم يقتله ، غي أنه منع الناس عنه ومنعه من القعود للناس ، فلا يكون علم ذلك عندهم ولا يصلون إليه فيعتزل الرجل فشق ذلك على شيعته وصعب عليهم حتى ألقى الله عز وجل في روع المنصور أن يسأل الصادق (عليه السلام) ليتحفه بشيء من عنده لا يكون لأحد مثله ، فبعث إليه بمخصرة كانت للنبي (صلى الله عليه واله وسلم) طولها ذراع ففرح بها فرحاً شديداً ، وأمر أن تشق له أربعة أرباع وقسمها في أربعة مواضع ، ثم قال له : " ما جزاؤك عندي إلا أن أطلق لك وتفشي علمك لشيعتك ولا أتعرض لك ولا لهم فأقعد غير محتشم وأفت الناس ولا تكن في بلد أنا فيه ، ففشى العلم عن الصادق وأجاز في المنتهى " . فمن الروايات السابقة يتبين إن الإمام الصادق (عليه السلام) كان يقيم الدروس العلمية وحلقات المناظرة في الكوفة كلما استدعي من المنصور وبعد رجوعه إلى المدينة يشيعة أهل العلم والفضل ، فكانت مدرسة الكوفة من أشهر المدن الإسلامية آنذاك بفضل (عليه السلام) . وكان الإمام الصادق (عليه السلام) يجلس كثيراً لطلبة العلم ، ويفيدهم بذكر الأحاديث النبوية ، وتفسير الآيات القرآنية ، والإحكام الفقهية والشرعية والدينية . (٢٥)

وكان طابع مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) الذي طبعت عليه ، ومنهجها الذي اختصت به من بين المدارس الإسلامية ؛ هو استقلالها الروحي ، وعدم خضوعها لنظام السلطة ولم تفسح المجال لولاة الأمر ، بأن يتدخلوا في شؤونها أو تكون لهم في توجيهها وتطبيق نظامها ، لذلك لم يتسن لذوي السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصة ، أو تتعاون معهم في شؤون الدولة . (٢٦) ، ومن الازدهار العلمي لهذه المدرسة العلمية والفكرية في مدينة الكوفة يروي النجاشي هو وجود تسعمائة شيخ في المسجد كل يقول حدثني جعفر بن محمد وكان هذا الشيخ عيناً من عيون الطائفة " (٢٧) .

من هذه الرواية نستطيع أن نتبين الدور العلمي الكبير الذي قام به الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في مدينة الكوفة ، حيث أن وجود تسعمائة شيخ كل واحد منهم يحدث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يدل على الجهد الكبير الذي بذله الإمام في نشر العلوم الإسلامية في مدينة الكوفة ، وكذلك تبين الازدهار العلمي والفكري لمدينة الكوفة ، فضلاً عن أن الإمام الصادق (عليه السلام) قد تمكن من أن

يغرس نواة من العلماء والفقهاء والمحدثين للعلوم الإسلامية المختلفة بالرواية عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) .

خاتمة :

شهدت مدينة الكوفة تطوراً علمياً وثقافياً منذ تأسيسها حتى عهد الإمام الصادق (عليه السلام) ، إذ ازدهرت ازدهاراً ملحوظاً بفضل الجهود العلمية والفكرية ، فأصبحت مدينة الكوفة مركزاً علمياً كبيراً لنشر العلوم الإسلامية بفنونها كافة ؛ نتيجة الدور العلمي والثقافي الفكري الواسع الذي تميزت به بعد تأسيسها ، إذ ازدهرت مختلف العلوم الدينية والدينية كالقرآن والحديث والتفسير واللغة والنحو والشعر والتاريخ وغيرها .

وقد أهلها دورها كي تمتزج ثقافتها العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى ما جعلها تتميز عن ثقافات المدن الأخرى . ويمكن القول أن ثقافة الكوفة حددت اتجاهات الثقافة في العراق في الفترات اللاحقة .

الملخص:

كانت المدن ولا تزال دون الريف والقرى ، مركزاً للعلم والفن والأدب ، لأنها أوفر مؤناً وأوسع عمراناً ، تتوفر فيها الوسائل المهيأة للحركة الفكرية أكثر من غيرها ، لأن العمران ووسائل العمران تستتبع شيئاً من الغنى والرفاهية ، وهذه تستتبع شيئاً من الرقي في الفكر والعاطفة والذوق ، وعند ذلك يحدث الرأي وتبتدع الطريقة فينشأ العلم ويعمر الأدب ، نعم إن الشؤون وآداب الشؤون تستدعي قوانين تنظم علومها يحصل بها رقي للعقل .

فلا شك في أن الثقافة الإسلامية تختلف عن ثقافات الأديان الأخرى ، فهي ثقافة تدور حول محور الدراسات الأدبية ؛ على أن من أراد أن يفهم الإسلام وتشريعاته وتعاليمه ؛ لابد من أن يفهم علوم العربية وآدابها أولاً ، وعلى هذا كانت الدراسات الإسلامية في المدينة المنورة في عهد الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، قبل أن تنتقل إلى البصرة وغيرها من أمصار الفتح الإسلامي لتبلغ ذروتها في الكوفة ، بعد أن اتخذها

الإمام علي (عليه السلام) عاصمة للدولة الإسلامية ، وأسّس في مسجدها المعظم أول مدرسة تُعنى بعلوم الشريعة والفكر واللغة والأدب .
وفي أثناء ذلك ((بقيت الكوفة تصبّ في بحر النجف)) التي بدأت العمارة تتسع فيها، وبدأ السكن ينمو تدريجياً، مع ظهور قبر الإمام علي (عليه السلام) في القرن الثاني الهجري .

الهوامش:

- (١) الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد . شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ، د.ت ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .
- (٢) جعيط ، هشام . الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص ٧٧ .
- (٣) علوان ، عبد الجبار . الشواهد والاستشهاد في النحو ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ١٨ .
- (٤) الدوري ، عبد العزيز نشأة الثقافة العربية الإسلامية ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، مجلد ١ ، ع ٢ ، الأردن ، ١٩٧٨ ، ص ٥٧ .
- (٥) البخاري ، أبو عبد الله بن أسماعيل . صحيح البخاري ، بيروت ، د.ت ، ج ١ / ٣٧ .
- (٦) الدوري ، المصدر السابق ، ص ٦١ .
- (٧) المجلسي ، محمد باقر (ت ١١١١ هـ / ١٧٠٠ م) . بحار الأنوار لدرر الأئمة ، لأطهار ، تحقيق : السيد إبراهيم الميانجي ، والسيد محمد باقر البهبوتي ، ط ٢ ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ ، ص ٨٩-٩٦ .
- (٨) السامرائي ، خليل إبراهيم . دراسات في الفكر العربي ، الموصل ، ١٩٨٣ ، ص ١٧١ .
- (٩) السامرائي ، المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .
- (١٠) العلي ، صالح احمد . نشأة الحركة الفكرية واتجاهاتها في صدر الإسلام ، ج ٢ ، مدريد ، ١٩٧٩ ، ص ٨-٩ .
- (١١) بن وكيع ، محمد بن حيان . أخبار القضاة ، صححه وعلق عليه عبد العزيز مصطفى ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ج ٢ ، ص ١٨٤-١٨٥ .
- (١٢) الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد . معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ، د.ت ، ص ٤٤-٤٥ .
- (١٣) الدجيني ، فتحي عبد الفتاح . أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي ، الكويت ، ١٩٧٢ ، ص ١٦-٢٠ .

- (١٤) الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن . طبقات النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ١١ .
- (١٥) المخرومي ، مهدي . مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، بغداد ، ١٩٥٥ ، ص ٤٧ .
- (١٦) علي ، جواد المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ج ٩ ، ص ٤٩ .
- (١٧) الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ت (٥٤٨هـ) ، أعلام الوري بأعلام الهدى ، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ٢٠٠٤ ، ص ٢٧٦ .
- (١٨) المفيد ، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (ت ٤١٣هـ) . الإرشاد ، ط ١ ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص ٢٦٢ .
- (١٩) الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) . معجم البلدان ، د . ط ، دار صادر ، بيروت ، د . ت ، ج ٤ ، ص ٤٩٣ .
- (٢٠) السبحاني ، جعفر . دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية ، ط ١ ، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) إيران ، ١٤١٣هـ ، ص ١٢٢ .
- (٢١) أسد حيدر . الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، ط ٣ ، مطبعة خورشيد ، منشورات مكتبة الصدر ، إيران ، ١٤١١هـ ، ج ٣ ، ص ٣٠ .
- (٢٢) الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ) . مقاتل الطالبين ، تحقيق احمد صقر ، ط ١ ، منشورات دار الزهراء ، إيران ، ١٤٢٨هـ ، ص ١٨٥ - ١٨٧ .
- (٢٣) الأربلي ، أبي الحسن علي بن عيسى بن ذي الفتحة (ت ٦٩٣هـ) . كشف الغمة في معرفة الأئمة ، ط ١ ، دار الأضواء للطباعة ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
- (٢٤) ابن شهر آشوب ، محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨هـ) . مناقب آل أبي طالب ، تحقيق يوسف البقاعي ، ط ٢ ، مطبعة سليمان زادة ، إيران ١٤٢٧هـ ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ .
- (٢٥) الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر احمد (ت ٥٨٤هـ) . الملل والنحل ، تحقيق عبد الأمير علي مهنا وعلي حسين فاعور ، ط ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ١ ، ١٩٩٣ ، ص ١٩٤ .
- (٢٦) اسد حيدر ، المصدر السابق ، ص ٦٨ - ٦٩ .
- (٢٧) النجاشي ، أبو العباس احمد بن علي بن احمد الأسدي الكوفي (ت ٤٥٠هـ) . كتاب رجال النجاشي ، ط ١ ، شركة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ٢٠١٠ ، ص ١٣٦ .

المصادر:

- ١- ابن شهر آشوب ، محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٥٨٨ هـ) . مناقب آل أبي طالب ، تحقيق يوسف البقاعي ، ط ٢ ، مطبعة سليمان زادة ، إيران ١٤٢٧ .
- ٢- الأربلي ، أبي الحسن علي بن عيسى بن ذي الفتح (ت ٦٩٣ هـ) . كشف الغمة في معرفة الأئمة ، ط ١ ، دار الأضواء للطباعة ، بيروت ، ج ٢ ، ٢٠٠٠ .
- ٣- أسد حيدر . الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، ط ٣ ، مطبعة خورشيد ، منشورات مكتبة الصدر ، إيران ، ج ٣ ، ١٤١١ هـ .
- ٤- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٥٣٥٦ هـ) . مقاتل الطالبين ، تحقيق احمد صقر ، ط ١ ، منشورات دار الزهراء ، إيران ، ١٤٢٨ هـ .
- ٥- البخاري ، أبو عبد الله بن أسماعيل . صحيح البخاري ، بيروت ، ج ١ ، د.ت .
- ٦- بن وكيع ، محمد بن حيان . أخبار القضاة ، صححه وعلق عليه عبد العزيز مصطفى ، القاهرة ، ج ٢ ، ١٩٤٧ .
- ٧- جعيط ، هشام . الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ، بيروت ، ١٩٩٣ .
- ٨- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) . معجم البلدان ، د. ط ، دار صادر ، بيروت ، ج ٤ ، د.ت .
- ٩- الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد . شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ، ج ٢ د.ت .
- ١٠- الدجيني ، فتحي عبد الفتاح . أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي ، الكويت ، ١٩٧٢ .
- ١١- الدوري ، عبد العزيز نشأة الثقافة العربية الإسلامية ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، مجلد ١ ، ع ٢ ، الأردن ، ١٩٧٨ .
- ١٢- الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد . معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ، د.ت .
- ١٣- الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن . طبقات النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

- ١٤- السامرائي ، خليل إبراهيم . دراسات في الفكر العربي ، الموصل ، ١٩٨٣ .
- ١٥- السبحاني ، جعفر . دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية ، ط ١ ، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) إيران ، ١٤١٣ هـ .
- ١٦- الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر احمد (ت ٥٨٤ هـ) . الملل والنحل ، تحقيق عبد الأمير علي مهنا وعلي حسين فاعور ، ط ٣ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٣ .
- ١٧- الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) ، أعلام الوري بأعلام الهدى ، تصحيح وتعليق علي اكبر الغفاري ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ٢٠٠٤ .
- ١٨- المفيد ، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (ت ٤١٣ هـ) . الإرشاد ، ط ١ ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨ .
- ١٩- علوان ، عبد الجبار . الشواهد والاستشهاد في النحو ، بغداد ، ١٩٧٦ .
- ٢٠- علي ، جواد المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، ج ٩ ، ١٩٧٨ .
- ٢١- العلي ، صالح احمد . نشأة الحركة الفكرية واتجاهاتها في صدر الإسلام ، ج ٢ ، مدريد ، ١٩٧٩ .
- ٢٢- المجلسي ، محمد باقر (ت ١١١١ هـ / ١٧٠٠ م) . بحار الأنوار لدرر لأئمة ، لأطهار ، تحقيق : السيد إبراهيم الميانجي ، والسيد محمد باقر البهبوتي ، ط ٢ ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ .
- ٢٣- المخرومي ، مهدي . مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، بغداد ، ١٩٥٥ .
- ٢٤- النجاشي ، أبو العباس احمد بن علي بن احمد الأسدي الكوفي (ت ٤٥٠ هـ) . كتاب رجال النجاشي ، ط ١ ، شركة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ٢٠١٠ .